ارتجال الشعر واجازته

١ — تمهيد

ارتجال الشعر قوله ابتداءً من غير روية ولا استعداد . ومن مترادفاته الابتداه والاقتراح والاقتضاب . وخَشْبُ الشعر واختشابه إرساله كما يجيء بلا تنوّق ، اي من غير تأنق فيه وتعمل له . فهو خشيبٌ ومخشوبٌ . قال الزمخشريُّ في الأساس : « كان الفرزدق ينقح الشعر وكان جرير يخشِبُ . وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق . وقال جندل :

« قد علم الراسخُ في العلم الأَرِبْ والشعراءُ أنني لا أختشِبْ
حسرى رذاياهم[1] ولكن أقتضِبْ

اي أبتدع » .

والإجازة هي ان يتم الشاعر بيتاً أنشد غيره مصراعاً منه . أو أن ينظم بيتاً أو أكثر على مثال بيت أو اكثر ، له أو لغيره ، ملتزماً بحره وقافيته . ويقال لها المماتنة والمساجلة والمعارضة والمحاضرة والمباراة . وموضوع الكلام ، في هذه المقالة ، ما وقع منها ارتجالاً بلا تريث ولا إبطاء . فلا يدخل فيه مايجيزه الشعراء على مهل وتأنٍ ، من باب الاحتذاء والمعارضة ، كما يفعلون بالتسميط أو التشطير والتخميس .

٢ الشك في إمكان الارتجال

ولا يخفى ان بعض الكتّاب في هذه الايام يشكّون في إمكان ارتجال الشعر

(١) حسرى جمع حسير اي كليل متعب . ورذايا جمع رذية مؤنث رذيّ بمعنى هزيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويطعنون في صحة مانراه في كتب الأدب من دعوى ارتجال الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولدين والمحدثين ، للأبيات والنُّتف[1] والقطع والقصائد المنسوبة اليهم . فيعدّونها دخيلةً او منحولةً او يزعمون ان أصحابها كانوا ينظمونها بعد سبق التروية والتفكير . ثم يستظهرونها ويحملونها على ظهور السنتهم وينشدونها في مجالس الخلفاء والملوك والامراء والوزراء . فيخيل الى سامعيهم انهم ارتجلوها ارتجالاً . ويشيع عنهم ذلك وتتناقله الالسنة ويصقله التواتر ، وهكذا يُعزى اليهم ما لم يكن فيهم ولا ادعوه قط .

٣ — هذا الشك يتناول الإجازة ايضاً

هذا ملخص ما يقوله المشككون في إمكان قرض الشعر ارتجالاً . وهو يتناول شكهم في الإجازة المرتجلة . فلا يصدّقون مايروى عنها . ويخرّجونه على وجوه مختلفة . فاذا ذُكرتَ لهم مثلاً حادثة ابي تمام الشاعر المشهور ، حين مثل بين يدي احمد بن المعتصم ، في حضرة الفيلسوف يعقوب بن الصبّاح الكنديّ ، وأنشد قصيدته السينية التي مطلعها : « ما في وقوفك ساعة من باس » وانتهى الى قوله :

إقدام عمرٍو في سماحة حاتمٍ في حلم احنفَ في ذكاء اياس

وقال له الكندي : « لقد شبهت الامير بمعاليك العرب » فأطرق ابو تمام هنيهةً وأنشد :

لا تنكروا ضربي له من دونهُ مثلاً شروداً في الندى والباسِ
فالله قد ضرب الأقلّ لنورهِ مثلاً من المشكاة والنبراسِ

قالوا لك « ليس بعيداً ان يكون ابو تمام ، لما نظم القصيدة وانتهى الى البيت الذي شبّه فيه ممدوحه بمن هم دونه ، قد تنبه الى مايرد عليه من الاعتراض فاستعد لدفعه بالبيتين اللذين حفظهما في ذهنه وأنشدهما بعد الاعتراض على وجه أوهمَ السامعين انه نطق بهما إجازةً مرتجلةً فأعجبوا بسرعة خاطره وحضور ذهنه » . وربما زادوا على ذلك قولهم ، تأييداً لرأيهم هذا ، ان ابا تمام كان مشهوراً بالتريث والابطاء في نظم الشعر .

(١) جمع نُتفة بضم النون . نُقل عن الفراء ان العرب تسمي البيت الواحد يتيماً والبيتين والثلاثة نتفة . أفاده الصبّان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا استشهدتَ على إمكان الإجازة المرتجلة بالشاعر مانٍ الموسوس الذي قيل انه سمع قول بعض الشعراء :

«حجبوها عن الرياح لأني قلتُ يا ريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها عند الوداع الكلاما»

فقال من فوره مجيزاً :

«فتنفستُ ثم قلتُ لطيفي ويكَ إن جئتَ طيفها إلماما
حيّها بالسلام سرًّا وإلا منعوها لكيدهم ان تناما»

أجابوك قائلين ماالدليل على كونه قد نظم بيتيه من فوره ؟ ألايحتمل ان يكون قد نظمهما على انفراد وتروٍّ تذييلاً او معارضة للبيتين الاولين ؟ ».

٦ — اهم اسباب الارتياب

أ — تعذُّر الارتجال على بعض الكتاب

ولهم على مخالفتهم للمعروف من جهة ارتجال الشعر وارتيابهم في صحته أدلة كثيرة أهمها اثنان .

ففي الاول يقولون : « لقد اتخذنا للشعر عدته واستوفينا جميع الشروط لنظمه . فحذقنا علوم اللغة بأسرها . ووقفنا على مطولات علمي العروض والقوافي . وطالعنا كثيراً من دواوين فحول الشعراء وكتب البلغاء واذخرنا مالم يسهل على غيرنا حفظه من مفردات اللغة ومترادفاتها وتراكيبها الفصيحة وتعابيرها البليغة . ولما استكملنا الاهبة حاولنا النظم غير مرة فاعتاص علينا . ومع كل مابذلناه من الجهد في تدميث وعثه وتسهيل صعبه لانزال نراه شديد الشكيمة وخشن المركب . فاذا كان هذا شأنه معنا ونحن نزاوله في ترسُّل وتعمل واجهاد قريحة واستكداد ذهن فكيف نصدق انه كان يذل وينقاد لمن أتوه على البديهة بلا اقل استعداد ؟ »

ب — عدم شيوع الارتجال في هذه الايام

ويقولون في الثاني : « لو صح مايروى عن مرتجلات الشعراء الغابرين لوجدنا لها اثراً بين شعراء هذا العصر وفيهم نخبة من حملة لوائه والمجلين في مضماره . هؤلاء كلهم ينظمون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه قصائد كالفرائد في القلائد . ويشنفون الآذان بما هو اغلى من الدر والعقيان . ويسكرون الاذهان براح البلاغة وسحر البيان . ومع ذلك لانسمع عنهم أنهم ابتدهوا قصيدة أو ارتجلوا قطعة او نتفة أو على الاقل أجازوا بيتاً او مصراعاً قبل أن يأخذوا نفساً أو يبلعوا ريقاً . »

٥ كلا الدليلين غير مقنع

ويرد عليهم في الاول ان عجزهم عن تذليل مطية الشعر لايصح أن يتخذ دليلاً على عدم هنوها ومطاوعتها لغيرهم . ومتى كان جهل الانسان لشيء دليلاً على عدم علم غيره به ؟ انما يصح ان يعد اعتياص الشعر عليهم دليلاً على فقدهم لملكته المعبر عنها بالقريحة . وغاية ما ينبغي ان يؤخذ من قولهم هذا انهم غير مخلوقين للشعر ولا مطبوعين عليه . و كونهم كذلك لا ينبغي ان يكون غيرهم بخلاف ماهم عليه . وجميع الشروط التي قالوا انهم استوفوها قد تكفي لأن تجعل الانسان ناظماً لاشاعراً .

ويرد عليهم في الثاني أن استقراءهم في مايتعلق بشعراء هذه الايام ناقص لايصح الاستناد اليه في الحكم على الشعراء الغابرين . وهبهم استطاعوا ان ينفوا قوة الارتجال عن شعرائنا المجيدين — وهو فوق استطاعتهم كما سيأتي — فليس ذلك بدليل على نفيها عمن تقدمهم في العصور السالفة . ومهما يبلغ من شدة براعة شعرائنا في نظم الشعر فان بينهم وبين الشعراء السابقين اختلافاً كبيراً في امور كثيرة تحول دون بلوغ المتأخرين شأو المتقدمين في النظم الارتجالي . واهم هذه الامور تغير احوال الزمان والمكان وتبدل وجوه الاجتماع والعمران . وترقي اساليب المعيشة وتنوع طرق التعليم والتهذيب وتشعب مسالك الكسب وطلب الرزق واتساع مسافة الفرق بين اللغة الفصحى واللهجات العامية الطامية ستيول ألفاظها وتعابيرها على الالسنة والشفاه وشيوع كثير من اللغات الاجنبية بين الناطقين بالضاد واضطرار اكثر الشعراء الى تعلم لغة او لغتين منها .

هذه كلها عرضت لما أوتيه فحول شعرائنا من قوة الابتداه والارتجال وحالت دون ظهورها فيهم بالمظهر الساطع الرائع الذي كانت تظهره في من تقدمهم . ومما زاد هذه العقبة الكؤود وعورةً ومشقةً عليهم أنه لم يتح لاحد منهم — كما أتيح لاكثر شعراء العهد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الماضي — ان يتخذ الشعر صناعة له يقتصر على احترافها وتعاطيها ليزداد بمواصلة مزاولته لقرض الشعر تمرساً به وتمرناً عليه حتى تظل فيه قوة الارتجال بكثرة الاستعمال محكمة الصقل متقنة الشحذ لا يصلد زندها ولا يكل افرندها .

ومع هذا كله لا يقصر اكثرهم عن الضرب بسهم كبير في ابتداء القريض فيأتونه في الاجازة وغيرها مرتجلين البيت والنتفة والقطعة الى ما يتجاوز العشرة وقد يبلغ العشرين ولو تهيأ لهم بعض الاسباب التي تهيأت للشعراء الغابرين لجاروهم في حلبة النظم الارتجالي وبرّزوا عليهم . وليعلم القارئ ان كاتب هذه السطور لا يقطع في صحة كل ما يروى من مرتجلات الشعر . ومن رأيه انه لابد للشاعر ، قبل الارتجال من بعض دقائق يقضيها في تصور المعنى واختيار اللفظ .

٦ — قالة المعنّى

ومما يؤيد قولنا هذا النظر الى قالة المعنّى . وهو شعر العامة في جبل لبنان وما حوله كالزجل في مصر . وله اوزان مخصوصة تقرب من اوزان أبحر الوافر والكامل والمتدارك في الشعر ويعرف قائله بالقوال . وما يقوله بالمطلع والقصيد . وهو في المعنّى كالحمل في الزجل . ومنه ضرب يعرف بالعديات او القراديات . ويراعى في نظمه القافية والمحافظة على الوزن بلا التفات الى صحة اللغة والإعراب . واكثر ما يقوله أربابه ارتجالاً فينظمونه متبادهين يجيبون بعضهم بعضاً على بحرٍ واحد وقافية واحدة متناولين جميع الفنون الشعرية من مدح وهجاء وفخر وحماسة وغزلٍ وحكمٍ ورثاء . ويلتزمون فيه اكثر ما يلتزمه الشعراء من البديع اللفظي والمعنوي والألغاز والمعميات وغيرها . وقد زاوله كثيرون من شعراء لبنان كالشيخ ناصيف اليازجي وبنيه الشيخ حبيب والشيخ ابراهيم والشيخ خليل وكان سلفي المرحوم الشيخ ابراهيم الحوراني من اكبر قالته واشهر فرسان ساحته وبين شعراء لبنان الآن عدد ليس بقليل من قالة المعنى الذين يشار اليهم بالبنان .

والذين يواظبون على قوله في هذه الايام لا يقلون عمن سبقهم فيه براعة وتفنناً وسرعة خاطر وفيض قريحة . وقد شهدت لهم عدة مجالس سمعت منهم فيها ما يطرب ويعجب ويقضي باشد مظاهر الحيرة والدهشة . واتفق مرة ان احدهم وهو الاديب اسعد الخوري القوال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذائع الصيت اشار اليّ في احد مطالعه وبالغ في مدحي واطرائي . فلم يسعني الا ان أنشدت قصيدة في وصف الحفلة والثناء على براعة القوالين ولم افرغ من انشادها حتى اجابني من فوره بأبيات — من بحر قصيدتي وقافيتها — ان لم تكن من بليغ الشعر فليست من مبتذله ورديكه . ومما اذكره له قوله في مطلع قصيد :

« بك يراعك يبتسم زهر الندى وضحك حسامك في الوغى تبك العدى »

وكما استطاع قالة المعنى في هذه الايام ان ينظموه على البديه كما كان ينظمه قالته في القديم هكذا يستطيع شعراؤنا الآن ان ينظموا الشعر ارتجالاً متى ارادوا وتوافرت لهم الاسباب التي تهيأت لغيرهم في سالف الازمان .

٧ بعض أمثلة الشعر الارتجالي

وكُتب الأدب حافلة بالنتف والقطع والقصائد التي يقال إن الشعراء كانوا ينشدونها ارتجالاً اجابة لاقتراح خليفة أو ملك أو أمير أو وزير . فمن ذلك مايروى عن المعز بن باديس انه استدعى شاعريه ابا عبد الله بن شرف القيرواني وابن رشيق الأزدي واقترح عليهما ان ينظما بين يديه قطعتين في وصف الموز على قافية الغين . فلبيا من فورهما الطلب . وكان ما نظمه القيرواني :

« يا حبذا الموزُ وإسعاده من قبل أن يمضغه الماضغُ
لانَ الى أن لا مجسَّ له فالفم ملآنٌ به فارغُ
فانه لي مأكل طيب وانه لي مشربٌ سائغُ »

وكان ما نظمه ابن رشيق :

« موزٌ سريع اكله من قبل مضغ الماضغ
فمأكل لآكل ومشرب لسائغ
والفم من لين به ملآنُ مثل فارغ »

ومنه ان الشاعرين ابن قلاقس وابن المنجم صعدا مع جماعة الى سطح الجامع في القاهرة عند مغيب الشمس في آخر يوم من شهر رمضان . فاقترحوا عليهما ان ينظم كل منهما في وصف مايراه من غياب الشمس وظهور الهلال . فأطرق كل منهما مفكراً . وميّز ماقذفه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه بحر خاطره متخيراً ، ولم يكن الا كرجعة طَرف ، أو كوثبة طِرف[١] ، حتى أنشدا ، فقال ابن النجم :

« وعشاءٍ كأنما الأُفق فيه لازوردٌ مرصَّعٌ بنضارِ
قلتُ لما دنت من المغرب الشم ـ ـسُ ولاح الهلال للنظَّارِ
أقرض الشرق صنوه[٢] الغرب دينا راً فأعطاه الرهن نصف سوار »

وقال ابن قلاقس :

« لا تظنَّ الظلام قد اخذ الشمسَ وأعطى النهار هذا الهلالا
انما الشرق أقرض الغربَ دينا راً فأعطاه رهنه خلخالا »

وكلاهما رائع بليغ ، ولكن الاول أروع وأبلغ كما لا يخفى .

ومنه انه جرى نزاعٌ في الشعر بين ابن الذروي وهبة الله ابن الوزير وهما في حمَّام ، واتفقا ان يحكم بينهما احد الأدباء ، فاقترح عليهما ان ينظم كل منهما شعراً في وصف الحمام ، فيحكم بالأفضلية لمن يسمو وصفه على وصف الآخر ، فقال ابن الذروي :

« إنَّ عيش الحمّام عيشٌ هنيءٌ غير أنَّ المُقام فيه قليلُ
جنَّةٌ تُكره الإقامة فيها وجحيمٌ يطيب فيها الدخولُ
فكأن الغريقَ فيها كليمٌ[٣] وكأن الحريق[٤] فيها خليلُ »

وقال ابن الوزير بعد ريث وابطاء :

« لله يوم بحمَّام نعمتُ به والماء من حوضها[٥] مابيننا جارِ
كأنه فوق شفاف الرخام بها ماءٌ يسيل على أثواب قصَّارِ »

فانتقد عليه الحكم تشبيهه الماء بالماء ، واستبرده ابن الذروي فقال فيه :

« وشاعرٍ أوقد الطبع الذكاءُ له بل كاد يحرقه من فرط إذكاءِ
فقام يجهد في نظم رويَّته وفسَّر الماء بعد الجهد بالماء »

---

(١) الطَّرف بفتح الطاء العين ، والطِرف بكسرها الكريم من الخيل .
(٢) الصنو الاخ الشقيق . (٣) كليم الله موسى . (٤) المحروق ، ويراد بخليل ابراهيم خليل الله . (٥) الحمَّام مذكر وقد يؤنث كما في هذا البيت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنه ان المهديَّ خرج يوماً للصيد ومعه عليّ ابن سليمان وابو دلامة الشاعر . فرمى المهدي ظبياً فأصماه ورمى ابن سليمان فأصاب احد كلاب الصيد . فأمر المهدي ابا دلامة ان يقول بديهاً شيئاً في ذلك فارتجل :

« قد رمى المهديُّ ظبياً شكَّ بالسهم فؤاده
وعليٌّ بن سليما ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كلٌّ م أمريءٍ يأكل زاده

ومنه ان تميم بن جميل التغلبي عاث في بعض الأعمال وأمر المعتصم فجيءَ به اليه . فلما مثل بين يديه ورأى السيف والنطع معدَّين لقتله أراد المعتصم ان يعلم كيف منطقه . فقال له « تكلم » فقال بعد ماحمد الله ودعا للمعتصم « ان الذنوبَ تخرس الألسنة وتُعمي البصائر ، فلم يبق الا العفو أو الاقتصاص ، وأرجو ان يكون أقربهما مني أليقهما بك» . ثم ارتجل تسعة أبيات قال في مطلعها :

« أرى الموتَ بين النطع والسيف كامناً يلاحظني من حيث لا أتلفت »

ومنها :

« وما جزعي أني أموت وانني لأعلم ان الموتَ أمرٌ موقتُ
ولكن خلفي صبيةً قد تركتهم وأكبادهم من حسرةٍ تتفتتُ
كأني أراهم حين أُنعى اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوَّتوا
فان عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ أذود الردى عنهم وان مت موّتوا »

فعفا عنه المعتصم وقلده عملاً .

ومنه ان جريراً دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عديّ بن الرقاع العاملي ينشده القصيدة التي يقول فيها :

« غلبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً وكفى قريش المعضلات وسادها »

قال جرير : « فحسدته على أبيات منها حتى أنشد في صفة الظبية :

« تُزجي أغنَّ كأنَّ إبرةَ روقه »

ثم قطع الانشاد لتشاغل الخليفة عنه . فظننتُ انه قد أُرتج عليه . فقلت في نفسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد وقع . وهو عاجز عن إتمام هذا التشبيه على وجه حسن مقبول ، ولكنه ما أبطأ ان قال : « قلم أصاب من الدواة مدادها » . واذ ذاك اخذ مني الحسد كل مأخذ وما قدرت أن أقيم فانصرفت » .

والحق يقال ان هذا التشبيه من اكبر معجزات البلاغة وسحر البيان ، ولو خامر قلب جرير أقل ريب في ارتجال ابن الرقاع لهذه القصيدة لم يتوقع عجزه عن اتمام البيت عندما أنشد صدره ولا حسده عليه بعدما أتمه .

ومنه ان ابا الفضل الدارمي سمر ليلةً مع بعض أصحابه وبين أيديهم شمعة ، فأفضى حديثهم الى وصفها ، وأطرق بعضهم لينظم فيها . فارتجل ابو الفضل :

سُمرنا فأذهبنا الهموم بشمعةٍ ... غنينا بها عن طلعة الشمس والبدر
أقول وجسمي ذائبٌ مثل جسمها ... ودمعتها الحرّي كما دمعتي تجري
كلانا لعمري ذوب نار من الهوى ... فنارك من جمرٍ ونارِيَ من هجر
وانكِ مثلي في مكابدة الأسا ... فصدرك في نارٍ ونارِيَ في صدري

وغير ذلك مما يضيق المقام دون استيفائه . وفي ديوان ابي الطيب المتنبيّ شيءٌ كثير من مرتجلاته وإجازاته في مجالس بدر بن عمّار وابي العشائر وسيف الدولة وغيرهم . وكلها تشهد له بانه كان من المجلّين في مضمار هذين الفنين .

٨ — بعض الاجازات المرتجلة

اما الاجازات المرتجلة فمن اقدم الامثلة عليها في كتب الأدب مانطالعه عن عبيد ابن الابرص المضري من فحول شعراء الجاهلية وحكمائها ودهاتها وأحد أصحاب القصائد المجمهرات المعدودة في الطبقة الثانية بعد المعلقات . فقد قيل انه لقي امرأ القيس يوماً وسأله « كيف معرفتك بالاوابد ؟ » أي القوافي الشرد . فأجابه : — « ما أحببت » فسأله عبيد :

« ماحيّة ميتة قامت بميتتها ... درداء ماأنبتت نابًا واضراسا ؟ »

فأجابه امرؤ القيس :

« تلك الشعيرة تسقى في سنابلها ... قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم سأله عبيد :

« ما السود والبيض والاسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمساسا »

فاجابه :

« تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها روّى بها من محول الارض أبياسا »

ثم سأله :

« ما مرتجات على هول مراكبها يقطعن بعد المدى سيراً وإمراسا ؟ »

فاجابه :

« تلك النجوم إذا حانت مطالعها شبهتها في سواد الليل أقباسا »

ثم سأله بعد ذلك عن الرياح والمنايا والجياد والموازين فأجابه عن كل منها على المنوال المتقدم وكان مجموع أبيات السائل والمسؤول ستة عشر فاذا صحت هذه الرواية كان الفضل الاكبر فيها لامرئ القيس . فقد ابدى في أجوبته من شدة الذكاء وقوة العارضة وسرعة الخاطر مايحسد عليه .

ومنها ان النابغة الذبياني زار رجلاً . فتناول هذا كاساً وقال :

« تطيب نفوسنا لولا قذاها ونحتمل الجليس على اذاها »

فقال النابغة :

« قذاها ان صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها »

ومنها أن زهير بن أبي سلمى نظم بيتاً وصدر بيت آخر وهما :

« تراك الارض إما مت خفاً [1] وتجيا ان حييت بها ثقيلا »

نزلت بمستقر العز منها »

ومر به — النابغة الذبياني فقال له : — « أجز يا أبا أمامة » . فاكدى اي امسك عن الجواب ثم أقبل ابنه كعب وهو بعد غلام . فقال له « أجز يا بني » فانشد :

« وتمنع جانبيها أن يزولا »

فضمه الى صدره وقبله وقال له : — « أنت ابن زهير حقاً ! »

---

(١) خفيفاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنها مايحكى عن جرير والفرزدق حين اجتمعا عند بشر بن مروان فقال لهما : انكما لقد تعارضتما الاشعار وتطالبتما الآثار وتقاولتما الفخار وتهاجيتما . فاما الهجاء فلا حاجة لي فيه . فدعا الآن مامضى . وجددا بين يدي الفخر متبادهين . » فقال الفرزدق :

(نحن السنام والمناسم غيرنا ومن ذا يسوى بالسنام المناسما [١]

فقال جرير :

على معقد الاعجاز انتم زعمتم وكل سنام تابعٌ للغلاصم [٢]

وقال الفرزدق :

(على محرض للفرس انتم زعمتم الا إن فوق الغلصمات الجماجما [٣])

فقال جرير :

(وانبأتمونا انكم هام قومكم ولا هام الا تابعٌ للخراطم [٤])

وقال الفرزدق :

(نحن الزمام القائم المقتدى به من الناس مازلنا فلسنا لهازما [٥])

فقال جرير :

(فنحن بنو زيد قطعنا زمامها فتاهت كسارٍ طائش الرأي عارم [٦])

فقال له بشر : « غلبته بقطعك للزمام وذهابك بالناقة . » ثم احسن جائزتهما وفضل جريراً . ويرى القارئ ان جريراً جارى الفرزدق في البحر والقافية وخالفه في حركة الروي فقط .

ومنها ان هذين الشاعرين اجتمعا هما والأخطل في مجلس عبد الملك . فاحضر بين

(١) السنام حدبة في ظهر البعير . وفلان سنام قومه اي كبيرهم والمناسم جمع منسم وهو خف البعير .

(٢) جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق . وهي ايضاً السادة والجماعة .

(٣) المحرض اسم مكان من جرضه اي خنقه . والفرس دق عنق الفريسة .

(٤) واحدها هامة اي الراس . (٥) جمع لهزمة وهي عظم تحت الاذن .

(٦) اسم فاعل من عرم الرجل اذا فارق القصد وخرج عن الحد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين يديه كيساً فيه خمس مئة دينار وقال لهم : ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه . فأيكم غلب فله الكيس . فبدر الفرزدق فقال :

انا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء

وقال الاخطل :

فان تك زق زاملة فاني انا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير :

انا الموت الذي يأتي عليكم فليس لهارب مني نجاء

فقال له عبد الملك : خذ الكيس فان الموت يأتي على كل شيء .

ومنها ان هؤلاء الثلاثة حضروا مجلس هشام بن عبد الملك ، فأمر باحضار ناقة وقال لهم : « نظمت مصراعاً في هذه الناقة ، فأيكم أجازه كما أريد فهي له . وهذا هو المصراع : (أنيخها ما بدا لي ثم أرحلها) » . فبدر جرير فقال :

(كأنها معتَنِقٌ[1] تعدو بصحراء)

فقال له هشام (لم تصنع شيئاً) . وقال الفرزدق : (كأنها كاسرٌ بالدوّ فتخاء[2])

فقال هشام : (ولا أنت) . فقال الأخطل : (ترخي المشافر واللحيين إرخاء[3]) .

فقال هشام : (اركبها بارك الله لك فيها) . وقد خالف الفرزدق رفيقيه في حركة الروي .

ومنها ان ابا تراب هبة الله بن السريجي لقي يوماً الشريف العباسي . وكانا كلاهما شاعرين . فقال ابو تراب :

أسلوتَ حبَّ بدور[4] ام تتجلّد وسهرتَ ليلك ام جفونك ترقد ؟

فأجاب الشريف بديهاً :

لا بل هُمُ ألفوا القطيعة مثل ما ألفوا نزولهم بها فتبعّدوا

---

(١) من أعتق الرجل فرسه أي أعجلها . (٢) الدوّ المفازة ، والفتخاء العقاب اللينة الجناح . (٣) المشافر جمع مشفر شفة البعير ، واللحيان عظما الحنك اللذان عليهما الاسنان . (٤) علم لامرأة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال ابو تراب :

فإلامَ تصبر والفؤاد متيمٌ ولظى اشتياقك في الحشى يتوقد ؟

فأجاب الشريف :

ما دام لي جلد فلست بجازعٍ إذ كان صبري في العواقب يحمد

فقال ابو تراب :

أحسنتَ : كتمانُ الغرام فضيلةٌ لو كان دمع العين مما يجمدُ

فأجاب الشريف :

ان كان جفني فاضحي بدموعه أظهرتُ للجلساء أني أرمدُ

فقال ابو تراب :

فهب الدموع اذا جرت أخفيتَها فيقال لِمْ أنفاسه تتصعد ؟

فأجاب الشريف :

أمشي وأُسرع كي يظنوا أنها من ذلك المشي السريع توأَدُ

وهي طويلة اكتفيت بذكر ما تقدم منها .

ومنها ان الشيخ الزنجبيلي دخل ذات ليلة على الفاضل المكي يعوده من مرض ، ولم يكن في غرفته مصباح ، فقال الزنجبيلي متمثلاً ببيت يقال انه لمنصور التميمي المعروف بابن الحلاج وهو :

ان بيتاً انت ساكنه غير محتاج الى السُّرُجِ

فأجابه المكي من فوره :

ومريضاً انت عائده قد أتاه الله بالفرجِ

ومنها ان المعتمد بن عبّاد صاحب قرطبة واشبيلية وما والاهما من الاندلس خرج يوماً يتنزه في مكان يقال له مرج الذهب ومعه وزيره ابوبكر بن عمّار الملقب بذي الوزارتين فجلسا على شاطئ غدير ، واذا بالريح قد هبّت على الغدير فتجعّد ماؤه . فقال المعتمد :

« نسج الريح على الماء زرد »

وحاول ابن بثم البيت فلم يستطع ، فأهاب بوزيره ابن عمار وكان شاعراً مجيداً ، وقال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له : « أجز ماقلت » ، فأقرد اي سكت عيًا . وكان على مقربة منها جارية اسمها عماد وتعرف بالرميكية ، فسمعت كلامها وقالت من فورها : « باله درعًا منيعًا لو جمد » فتعجب المعتمد من شدة بداهتها وجودة نظمها ، ولم يلبث ان تزوجها .

ودخل يحيى بن خالد حديقة قصره ومعه جاريته دنانير ، فرأى وردًا نضيرًا فقال : أجيزي يادنانير :

الورد أحسنُ منظرًا فتمتعوا باللحظ منه

فقالت مسرعة :

فاذا انقضت ايامه فالورد انت تنوب عنه

وخرج الحسن بن الضحاك وابو العتاهية ، فاذا بامرأة تبكي ولدًا لها . فقال ابو العتاهية :

فما تنفك باكية بعين غزير دمعها كمدًا حشاها

فقال الحسن :

تنادي حفرة أعيت جوابًا فقد ولهت وضُمّ بها صداها

وسمع احمد بن يوسف الشاعر قينة تغني :

أناس مضوا كانوا اذا ذُكرَ الأُلى مضوا قبلهم صلوا عليهم وسلموا

فقال أحمد مجيزًا :

وما نحن الاّ مثلهم غير اننا أقمنا قليلاً بعدهم فتقدّموا

وقال ابو نواس يومًا لجماعة من الشعراء : أجيزوا قولي — (عذب الماء وطابا) فأجابه ابو العتاهية على البديه : (حبذا الماء شرابا) .

ورأى ابو نواس الجارية عنان في بعض ايام الربيع ، فقال لها : (أجيزي ياعنان)

كل يوم عن أقحوانٍ جديدٍ تضحك الارض من بكاء السماء

فقالت من فورها :

فهي كالوشي من ثياب عروسٍ جلبته التجار من صنعاء

ورآها يومًا تبكي وكان مولاها قد ضربها فقال :

بكت عنان فجرى دمعها كلولؤ ينسلُّ من خيطه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقالت : فليتَ من يضربها ظالماً تجفُّ يمناه على سوطه

ودخل رجل ذات ليلةٍ على ابي بكر البكيّ ، فأنكره وسأله عن صناعته ، فأجابه : (اني شاعر) فأراد ابوبكر امتحانه ، ونظر الى شيءٍ يصفه فلم يجد غير المصباح ، فقال للرجل أجز :

ومصباح كأن الضوء فيه محيا من أُحب اذا تجلى

فقال الرجل مسرعاً :

أشار الى الدجى بلسان أفعى فشمر ذيله هرباً وولى

وهذه الامثلة على كثرتها ليست الا قطرة من بحر الاجازات الزاخر وكلها تشهد للشعراء الغابرين بقوة العارضة وسرعة الخاطر .

وكان الشاعران الشيخ ابو الحسن الكستي والشيخ ابراهيم الحوراني كثيراً مايجتمعان في بيت ثانيهما في بيروت يتبادهان الشعر في مواضيع مختلفة ومعهما جماعة من اهل الأدب حتى كان منزل الحوراني في تلك الايام اشبه شيءٍ بسوق عكاظ . ومن الأسف ان طائفة كبيرة مما كانا يرتجلانه ويجيزانه فقدت ولم يعن الذين سمعوها بكتابتها . فمن ذلك أنه اقترح عليهما ان يصفا رجلاً طويل القامة ضخم الجثة كبير الملامح . فقال الحوراني :

(هزيّ قدّاً علوه الف متر)

فاجازه الكستي بقوله : فوقه هامة كجلمود صخر

وقال الحوراني : (ذو ثغير كالبحر يفتر عجباً)

فاطرق الكستي هنيهة . واشفق الحضور ان يعجز عن التكملة . ولكنه ماعتم ان نهض واقفاً واسترعى السمع وقال :

(عن ثنايا تنسيك أهرام مصر)

وحقاً ان اجازة البيت الثاني من اكبر ضروب الإعجاز . لأن من يكون فمه في سعة البحر فأخلق بأسنانه ان تكون أضخم من اهرام مصر !

وفي ربيع سنة ١٩٠١ كنت في بيروت . فزرت سلفي الحوراني . فرأيته يتأهب للذهاب الى المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك لإلقاء خطبة في احتفالها السنوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان استاذ البيان في تلك المدرسة فصحبته في المركبة . وفي اثناء الطريق نظرت اليه فاذا به واجم على خلاف عادته وهو يشكو صداعاً وضعفاً في ذاكرته فاردت مداعبته . وقلت اجز ياعديل [1] :

(أسفاً عليها ذاكره)

فأجازه من فوره بقوله : (سكنت ديار الآخره)

وقلت : (كانت تدور على النهى)

فقال : (دارت عليها الدائره)

القاهرة : اسعد خليل داغر

(١) يطلق العديل عند بعض المتأخرين على السلف . وسلف الرجل زوج اخت امرأته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net